الثنائيات الضدية في شعر صفاء الحيدري

أ.م.د. وسام محمد منشد بندر الهلالي

كلية التربية / جامعة القادسية

تسليم البحث : ٢٠١٨/١٠/٣ قبول النشر : ٢٠١٩/٦/٢٧

الخلاصة :

طابع الثنائية طابع أدبي عملت على صياغته مجموعة من المكونات الاجتماعية والسياسية والبيئية ، إذ إن ظاهرة الثنائيات متجذرة في الإبداع الشعري وتحمل في جوهرها عنصر التضاد ، و كان الشاعر صفاء الحيدري قد استعمل اللغة الكلاسيكية ، لكنه كساها بثوب جديد ، اعتمد على عنصر الأضداد ، لتعزيز المعنى وتقوية أثره وتأثيره في نفس المتلقي ، كذلك وظف الشاعر الحيدري الإشارة دون تفصيل ، في كثير من نصوصه الشعرية ، اعتمد فيها على الانزياح بشكل لافت ، فقد اتسم شعره أيضاً بشيوع الطابع السردي في كثير من قصائده ، إلا أننا اعتمدنا في دراستنا على اقتطاع النص الذي تبرز فيه الثنائية الضدية للإشارة إليها و التوثق منها شعرياً ، فقد شكل التضاد محوراً أساسياً في معظم نصوص الحيدري ، عبر ثنائيات متشابكة تضيف إيماءات غزيرة على امتداد النص ٠

المقدمة :

للثنائيات الضدية في الشعر أشكالاً مختلفة تجعل منها مرآة لرؤى مختلفة ، تشكل العمل الفني ، أي أنها تكون عناصر تشكيلية تخرج عن المألوف والمكرر ، تمنح للشاعر فرصة لإنتاج النص بطرائق وأساليب مغايرة ، وإذا تحقق هذا الدور في تشكيل النص ، يمكن له أن يظهر على مستوى اللغة الشعرية ، وعلى مستوى الرؤيا ، وقد حاولنا في هذا البحث أن نرصد هذه الظاهرة في ديوان الشاعر صفاء الحيدري ، وهو شاعر عراقي لا يحفل به النقاد كثيراً ، ونادراً ما يتذكره الشعراء ، وقلما يذكره المؤرخون من مواليد ١٩٢١ انصرف إلى الشعر منذ عام ١٩٤٠ وعمل في الصحافة ، وله ثمانية مؤلفات شعرية منشورة ، وهي : أوكار الليل (١٩٤٧) ، وعبث (١٩٥٠) ، وبابلون (١٩٥٤) ، وقصائد وطنية (١٩٦٢) ، وقنوط (١٩٦٣) ، وقافلة الحريم (١٩٦٥) ، والحب الكبير (١٩٦٨) ، وقصائد للوطن (١٩٨٠) ، وفي عام ١٩٨١ نشر أعماله الشعرية كاملة ٠ وقد تكون هذا الشاعر في حاضنة الشعر العربي الرومانسي شأنه شأن غالبية شعراء جيله.[١]

وقد عبر عن موضوعات وظواهر أسلوبية مختلفة ، منها الثنائيات الضدية التي عبر عنها بطريقة مخصوصة تؤدي إلى توليد دلالات جديدة وصور شعرية مختلفة ، وقد جاءت الدراسة على النحو الأتي : الثنائيات في المنظور النقدي، ثم أهم الظواهر الضدية في شعر الحيدري ، وهي : ثنائية الزمان والمكان ، و ثنائية الفضيلة والرذيلة ، و ثنائية الحضور والغياب ، وثنائية اللون ، وثنائية الحركة والسكون ٠

الثنائيات في المنظور النقدي :

تعد الثنائيات الضدية من الظواهر الأسلوبية البارزة في النص الشعري ، فهي إحدى المهيمنات البلاغية التي لها دور مهم في صياغة النسق البنائي ٠

وفي النقد العربي القديم يلتقي مصطلح الثنائيات الضدية في بعض جوانبه مصطلحَ الطباق والتضاد والمقابلة ، انطلاقا من وظيفة الأدب المعبرة عن التجربة الصادقة أو غير الصادقة ، إذ تعد الثائيات مرتكزا من مرتكزات التحليل البنائي النقدي للنصوص الأدبية ، يؤدي الكشف عنها للوصول إلى البنية المتحكمة في النص ٠ [٢]

تقوم الثنائية بوصفها فكرة فلسفية على فكرة أن ثمة قدرة على الربط بين الظواهر التي يبدو أنها منفصلة، فالتضاد رابطة مثل التماثل، والتناقض ؛ لأنه يعني نفي النقيض، فوجود النور ينفي وجود الظلام؛ لذا يدخل النور والظلام في علاقة تناقض، أما وجود الأبيض فيتضاد مع الأسود، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد، فالحالتان المتضادتان إذا تتالتا، أو اجتمعتا معاً في نفس المدرك كان شعوره بهما أتم وأوضح، وهذا لا يصدق على الإحساسات والإدراكات والصور العقلية فحسب بل يصدق على جميع حالات الشعور كاللذة والألم والتعب والراحة . فالحالات النفسية المتضادة يوضح بعضها بعضاً، وبضدها تتميز الأشياء، وقانون التضاد أحد قوانين التداعي والتقابل٠ [٣]

تولِّد الثنائيات الضدية فضاء مائزاً للنص، إذ تجتمع جملة علاقات زمانية ومكانية، وفعلية بأزمنة مختلفة، فتلتقي هذه العلاقات على أكثر من محور، تلتقي وتتصادم وتتقاطع وتتوازى، فتغني النص، وتعدد إمكانيات الدلالة فيه، فالتضاد الفعلي والاسمي يشكل عالماً من جدل الواقع والذات في صراعها مع الحياة، ووفرة الثنائيات في النص الأدبي دليل انسجام إيقاعاته، وانفتاحه على أكثر من محور، فيمكن أن نعثر على مجموعة أنساق متضادة في النص الأدبي الواحد تضفي عليه مزيداً من الحيوية والحركة، هذه الأنساق المتضادة ذات صلة بالكون الذي تصوره سواء أكان ذلك الأمر بالتضاد أم بالتكامل؛ لذا تجتمع فيها الخصائص الجمالية .

وتعمل الأضداد على متابعة النصّ، وما يتشكّل عنها من علاقات، تتحرَّك في تواتر متجاذب وكأنّها شبكة تتابع خيوطها، وتتبادل مواقعها، وتتشابك تطريزاتها على جسد النصّ. كما تقوم الأضداد بدور حيويّ فاعل في تأسيس الوجه الأهم في البنية الحركية في النصّ، إذ ثمّة فارق بين المواقف المتضادة والمواقف المتقابلة، "فمع التضاد يمكن أن يحدث تفاعل وامتزاج.. أمَّا المواقف المتضادة فمن النادر أن تكون مواقف شعرية صالحة للنمو، وذلك لما يتضح للمتأمل من أنّ جذور الموقفين المتقابلين واحدة في العمق، على حين أن "التضاد" ترفض فيه العناصر بعضها بعضاً، كما يرفض الجسد الأعضاء الغريبة عنه .[٤]

فالأضداد لها قدرة فنية في خلق جو نغمي ، قائم على السلب والإيجاب ، في استخدام المفردات المتضادة في المعنى ، إذ يبرز المعنى، ويستضيء وضوحا ؛ لأن التضاد ليس محسناً بديعياً فحسب ، وإنما هو جزء من نسيج القصيدة وتركيبها ....، وكلما كان التضاد عميقاً والاختلاف كبيراً ظهرت قدرة الشاعر على التعبير عن المعنى ورسم صور له .[٥]

تتميز لغة الشاعر صفاء الحيدري باتخاذ الثنائيات الضدية ، ملمحاً أسلوبياً مهيمناً على جميع العناصر المكونة للشعرية ، إذ يظهر عنصر التضاد بين الكلمات مكوناً رئيساً ، إذ لا تكاد تذكر كلمة دون أن يأتي الشاعر على ذكر نقيضتها في المقطع ذاته ((وكأنه يريد أن يثبت الوحدة في تفكير يتعاطى مع دلالات موزعة على حضورنا في الكون)) [٦]

وقد تمثلت الثنائيات الضدية في شعر صفاء الحيدري بالظواهر الآتية :

المكان والزمان :

وتتشكل هذه الثنائية من اندماج وتلاحم بين عنصري الزمان والمكان ، وذات الشاعر والموضوع المطروح ، المكان والزمان.. نوافذ ومراحل، عندما يتغير أي معيار من كليهما تتفاوت درجة الانتماء والاندماج، فحنين الإنسان لكل منهما يجعل من وجوده وتواجده ووجده ذا طعم مختلط بإحساس إمّا أن يكبّله أو يحرّره.

إن جدلية الزمان والمكان هي كينونة لا بدّ منها حيث لا يمكن أن نحقق ذواتنا في غياب إحداها أو نغيّر في واقعنا دونها. هي رافعة الوجود الذي نفعل فيه وننتظر منه ما ينبغي أن ينتج عمّا فعلناه. هي ثنائيّة المسبّبين لتحقيق السبب المؤدي للنتيجة. وبتوفّر الحاضن الزّمكاني يصنع الحنين للّحظة بكل تفاصيلها، للصورة للرائحة للكلمة وللرفقة [٧]

يقول الشاعر : [٨]

بيدي أشرت وكان موعدنا هنا
في الحقل عبر الدرب بعد المنحنى
وأجبتني لو تذكرين
غدا ستلقاني أنا
أملاً يفيض على الدنى
عهداً شهي المجتنى
أنا ٠ أنت نزرعه هنا
٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
لكن الربيع مضى ولم ينم الجنى
جاء الشتاء
أتى ومرَّ وعشتهُ وحدي أنا

يستذكر الشاعر في هذه الأبيات لقاءه السابق بقوله : (وكان موعدنا هنا) ، (في الحقل) ، (عبر الدرب) ، (بعد المنحنى) وهذه كلها أماكن ترتبط بعنصر الزمان المتمثل بثنائية الربيع والشتاء ٠ الربيع الذي مضى و الشتاء الذي جاء ، لم يتحقق بهما لقاءه الذي تم في تلك الأماكن المذكورة سابقاً ، وهذا التمازج بين هذه الثنائيات وبين ذات الشاعر (أنا الشاعر) ، تدل على اتجاهين مختلفين ، الأول هو المكان الذي مثل به الجانب الإيجابي ، لما يحمل من ذكريات طيبة ، حوت لقاء الشاعر بمحبوبه ، أما الثاني الزمان ، الذي مثل الجانب السلبي ، لأنه كما أشار الشاعر لم يتحقق فيه ما كان يرجو ، كما في قوله : (لكن الربيع مضى ولم ينم الجنى) و (جاء الشتاء أتى ومرَّ وعشتهُ وحدي أنا) ٠

كذلك نلحظ ثنائية (الأنا) و (الأنت) ، ف (الأنا) تمثل بقوله : (ستلقاني أنا ، وعشته وحدي أنا)، أما (الأنت) فتمثل في قوله : (أنت نزرعه هنا) ، وكذلك ما جاء ضمناً في قوله : (وأجبتني لو تذكرين) و(ستلقاني) ٠ وهذه الثنائية حملت دلالة نفسية بين اللقاء والفراق ، والتي ارتبطت بعنصر الزمان كما ذكرنا آنفاً ، كما أنها أكدت على النزعة الرومانسية للنص ٠

يقول في موضع آخر : [٩]

وغداً حينما سيمضي كلانا في طريقٍ ، ويلتقي شبحانا
ستكون الرياحُ قد أخفت الدربَ ومرّتْ وما تناست خطانا

في هذا النص نلحظ ثنائية الزمان والمكان متمثلة بلفظتي (غداً) ، و (الطريق)، وهذه الثنائية بينت رؤية الشاعر المستقبلية للقائه القادم ، الذي سيقرره القدر يوماً ما٠ وهذه الحركة المتواصلة بين الزمان والمكان ، جعلها الشاعر في استحضار دائم ، من خلال ثنائية أخرى هي ثنائية المضي واللقاء (سيمضي ٠٠٠ويلتقي) ، فعنصر المضي يتعلق بجسديهما ، أي بالجانب المادي ــ الحسي ، كما يقول : (سيمضي كلانا) ، أما اللقاء فيتحقق في الجانب الروحي غير الحسي ، كما في قوله: (ويلتقي شبحانا) ٠

ويقول أيضاً : (١٠)

في ذات يومْ

من بعد عامْ

عدنا التقينا في الطريقْ

قلبي الشقيُّ وقلبُكِ الهرمُ العتيقْ

كدنا نعودُ أجل نعودُ فسمرتنا نظرتانْ

وتنازعتنا رغبتانْ

استعمل أيضاً مفردتي (يوم ــ عام) ، و (الطريق) ، في عملية متشابكة بين زمن مضى (من بعد عام) ، (في ذات يوم) ، و في مكان معلوم هو (الطريق) المجهول الذي لم يحدد الشاعر معالمه ، حتى أنه ذكره في عدة مناسبات ، كما في النص الذي سبق ، وهذا مما يجعلنا نطلق على هذه الثنائية بـ (المشخصات الرمزية) للشاعر ٠ فهنا نلحظ تكثيف المعنى ، إذ إنه يوضح أن في هذا الوقت وفي هذا المكان قد التقى قلب الشاعر وقلب المحبوب ، وقد وصف قلبه بالشقي وقلب المخاطب بالهرم العتيق، فالقلب الشقي هو القلب العاشق ، العنيد ، الذي لا يتنازل بسهولة عن معشوقه ، بعكس القلب الهرم العتيق ، الذي هضم العشق ، فصار بالياً، لا يعنيه الأمر من قبل ومن بعد ٠

ثنائية الفضيلة والرذيلة :

وتتمثل هذه الثنائية في شعر صفاء الحيدري في مطولته الشعرية (بابلون) ، وبابلون أميرة بابلية اسمها بابلون ، تقع في حب أخيها من أبيها، الذي بدوره لا يرى في هذا الحب إثماً ، وإنما يعده امتداداً لصلة الدم التي تربطه بأخته ، ويعده حقاً من حقوقه الطبيعية المشروعة ، فهو ــ بنظره ــ أحق بأخته من أي رجل آخر ٠ وهكذا يقوم الصراع بين بابلون وأخيها من جهة ، وبين

المجتمع من جهة أخرى ، فالمجتمع يمثل الفضيلة ، لأنهم أصحاب الرأي الشائع ، والأخوين يمثلان الرذيلة ، بحسب رأي المجتمع أيضاً . (١١)

في الفصل الأول يقول :(١٢)

وصباحُكِ الفضيِّ أسودَ من خطيئتك المشينة
ستفور ديدان القبور غداً عليـــك كأي طينة
ويلوغُ فيك فم الثرى ويهين عفتك المصونة

. . . . . .

إني امتحنتكِ بالخطيئة يا بريئة فاستنزفي ما في شبابيك من خطيئة

نلحظ لسان الفضيلة مخاطبا تلك الأميرة : إن صباحك أسود ، بسبب علاقتك بأخيك ، والتـــي وصفها بالخطيئة المشينة ، والموت سيدركك ، وفي أول الوقت ستغزو الديدان قبرك ، كـــأي كـــائن آخر ، وسيراودك التراب وينتزع منك جسدك وعفتك ، التي دنست من قبل ، إلى أن يقول : أنك لـــم تجتازي امتحان البراءة والحفاظ على الفضائل والقيم الأخلاقية ، فاستنزفتي شـــبابك فـــي الرذائـــل والخطايا .

وهكذا يكتشف المجتمع هذه العلاقة الآثمة يقرر حرقهما حيين ، وما تلبث بابلون نفســـها أن تشعر بالندم فتقرر الخلاص من أخيها ، وفي ليلة من الليالي تقتله بعد آخر ضجعة لها معـــه ، ثـــم تنتحر لفشلها في التوفيق بين شهواتها وإرادة المجتمع المحيط بها . وبذلك تنتصر الفضيلة علـــى الرذيلة .(١٣)

وهذه الثنائيات (الفضي ، أسود) ، و (يهين ، المصونة) ، و (بريئة ، خطيئة) أسهمت فـــي تعزيز شعرية النص ، وتقوية المعنى الرئيسي ، الذي يؤكد فيه الشاعر على انتقال معاني الفضـــيلة إلى الرذية بالنسبة للمخاطبة ، فانتقل الصباح من كونه فضي إلى صباح أسود ، ومن عفة مصـــونة في الحياة إلى مهانة بعد الممات ، ومن إنسانة بريئة إلى إنسانة ملوثة بالخطيئة ، وهكذا .

يقول الشاعر : (١٤)

بابلون
بابلون
ماذا دهاكِ ، ماذا دهاكِ
وعلى م تقبض راحتاك
الخنجر المسموم
يقطر من دماهُ ؟ أم دماك
. . . . . .
هذي يداه
هذي شفاه
طويت عليك ، على رؤاه كفَّرت عن ماضيك ، إلا عن هواه

في هذا المقطع نلحظ أنّ بابلون قامت بقتل أخيها ، بخنجرها المسموم ، وبذلك تنتصر ــ كما يرى الشاعرــ الفضيلة على الرذيلة ، غير أنه يرى أنّ الذي انتصر في هذه القصة هو الأكثرية ، وأنّ الذي هزم هو الأقلية ، وأنّ ما حصل هو أنّ إرادة المجتمع تغلبت على إرادة الأفراد ، أما مفهوم الفضيلة والرذيلة فهو نسبي في رأيه، وهو يقصد بالنسبية هنا ، اختلاف ثقافات الشعوب والأقوام ، وتباين عقائدها ومفاهيمها حول المحلل والمحرم . (١٥)

ثنائية الحضور والغياب :

الحضور في النص يتمثل ببنية الكلام الحاضرة ، والغياب يتمثل بالمعنى الغائب ، أي : أن الحضور للمفردات والتراكيب في المستوى السطحي ، يحمل في انكشافه غياب المعنى الذي لا يحضر إلا بجهد تأويلي يُمارس على غياب الحضور في لغة النص الشعري (١٦) .

يقول الشاعر صفاء الحيدري : (١٧)

ومررتِ بي
ما كان قبلُ بعالمي غير انتظارْ
وغير شيءٍ كالدوار
وحقيقةٍ ضاعت بضوضاء النهار
ومضى النهارُ مضى النهار
مرت دقائقه كأحلام قصار

وغررت بي
وتركتني
أطوى على الجرح الأبح وانحنى
والليل ، مد ظلاله السودا جدار
فرشت كواكبه دروب الشمس فانكفأ النهار

فنلحظ هنا غياب النهار وحضور الليل ، وقد تجلى ذلك الغياب لليل ، من خلال تكراره (مضى النهار) ، فمفردة النهار بوصفها تحمل بين طياتها مفهوم الغياب ، وذلك من خلال إسناده لفعل المضي ، وقد أكد على هذا الغياب ، من خلال تكراره عبارة (مضى النهار) ٠ ويبدو أن السبب في تغييبه للنهار ، لأنه الوقت الذي قضاه بلا حب أو علاقة مع حبيب ، لذلك كان يعدُّه ضياع لحقيقة وجوده في الحياة ، فعالم الشاعر عالم فارغ ، فوضوي ، إلى أن دخلت حياته تلك المرأة ، ، فقد ظنّ أنها حين جاءت ستأتي لحياته بالنهار من جديد ، لكنها خدعته ، وخطفت سنوات عمره ، وتركته في ليل سرمدي وعذاب أبدي ، ويمكن أن نوضح هذا العالم بالمخطط الآتي:

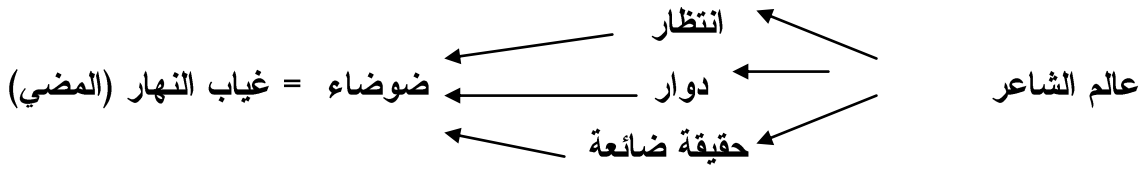

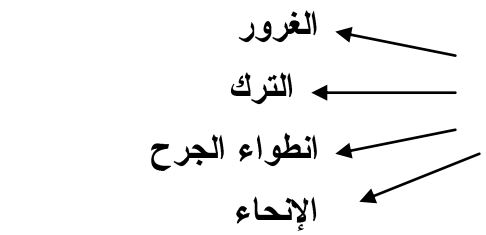

غياب النهار = ضياع دقائقه بسرعة كالحلم = التغرر = انطواء الجرح = الترك والهجر

إذن من هذا المخطط نلحظ اللا جدوى في عالم صفاء الحيدري ، فعالمه ليس فيه سوى الانتظار ، والدوار ، والحقيقة الضائعة ، وكل ذلك تبخر في ضوضاء النهار الصاخب ٠ فهو إحساس بفادح الخسران تجاه هذا العالم ، إلا أنَّ هذا الخسران تجلى بخيانة تلك المرأة له بعد خدعته وغررت

به وتركته ، لذلك نجده يحاول التعويض عن ذلك باستلهام عنصر الليل ، الذي يعده الشاعر العالم المثالي له ، البعيد كلياً عن عالم النهار الصاخب ، ففي الليل الهدوء والسكون والرجوع إلى الذات ٠

إذن يتجلى الحضور في عنصر الليل ، الذي بحضوره ينكفئ النهار ، ويمكن ملاحظة ذلك في المخطط الآتي :

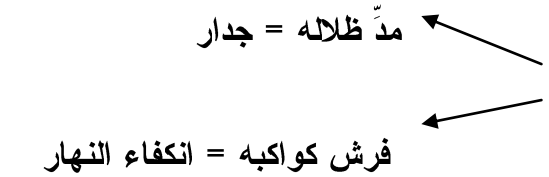

فالليل شكل حضوراً لافتاً في هذا النص ، فقد امتد في الأفق وغطى ظلاله ذلك العالم ، واتخذت نجومه وكواكبه من السماء فراشاً ٠ فتأسيس هذا الحاضر الاستثنائي في اللحظة الشعرية التي يعززها النص ، إنما هو مقاومة لسلبية الغياب المهيمن ، كذلك شكلت المرأة في وقت ما حضوراً ، فكانت نهاراً ، ثم انكفأت فأصبحت غياباً ، وصار حينها الليل حضوراً ٠

ثنائية اللون :

إن اللون يحمل دلالاته الخاصة لدى الشاعر ،وذلك لانصهار الألوان بالطبيعة وما يتعلق بها ، وإن انتقائية الشاعر للألوان في شعره ، يرجع إلى مزاجيته التي تفرضها طبيعة الموقف والتجربة الشعرية ، فاللون إذن دلالة بوصفه عنصرا فاعلا في تجربة الشاعر تنصهر فيه جميع الدلالات الحقيقية والمجازية ويخرج اللون من دلالاته الوصفية الشكلية إلى دلالتة على موصوف آخر وفيه يلح الشاعر ويومئ ويصرح ويلمح عفويا مرة وتصنعا عند البعض ، وفي الحالتين تكون إيماءات اللون معينا يستمد الشعر منه جزءا من طاقته ٠ (١٨)

يقول صفاء الحيدري : (١٩)

أنت مثلي غير أني (يا أخي) أرمى وأُجلدْ
كل ذنبي أن لوني هكذا ٠٠ كالقير أسودْ
وعلى باب حياتي خُطَّ لي (سجنٌ مؤبدْ)
غضبي يا أبيض اللون بصدري يتوقد
لم يزل خنجرك الدامي هنا في القلب مغمد
تزحف المأساة منه في الشرايين وتصعد

غير أني ــ وأنا الأسود ــ قلبـــــي ليـــس أســـود
لك ماضيـــــك (أخي الأبيض) لكنّ لـــــيَ الغد

في هذا النص نداء وشكوى بين الإنسان وأخيه الإنســان ، إذ أراد الشــاعر أن يعــالج قضــية اجتماعية وهي قضية العنصرية ، بين البيض والسود ، إذ يشكل اللون إحدى المشكلات الاجتماعيــة في الكثير من البلدان آنذاك ، ففي البلدان الغربية ــ مثلاً ــ كان الفرد ذو البشرة السمراء ، يعامــل بتعسف وتمييز وقمع من قبل الحكومات والأفراد الآخرين من أصحاب البشرة البيضاء ، ومن هــذا المنطلق نجد الشاعر قد أدار هذا المانالوج الدراماتيكي ، وقد اتخذ من شخصية المظلوم ذي البشرة السوداء قناعاً له ، إذ يبدأ كلامه بالمقارنة بينه والأسود وبين الآخر وهو الأبيض ، فتكون النتيجــة أن لا فرق بينهما ، فكلاهما إنسان ، بعد ذلك يشرح لأخيه الأبيض ما يتعرض له كل الســود ، مــن رمي بالرصاص ، والجلد بالسوط ، بسبب اللون الأسود، ولا سبب غير ذلك ، وكأنه قدر محتوم على السود أن يكون هذا حالهم ، وهذا ما أكده بعد ذلك بقوله : ((وعلى باب حياتي خُــطَّ لـــــي (ســجنٌ مؤبدْ))) ، هذا القدر المحتوم بصاحبه ألم في القلب دامي ، شببه الشاعر بالخنجر الدامي المغــروز في القلب وفي الوقت نفسه فهو مغمد ، كناية عن البقاء والثبات في ذلك المكان ، وكــل هــذا وذاك كان له الأثر الكبير في غضب الشاعر المتوقد كالنار ٠ وبعد ذلك يعود الشاعر للمقارنــة فيؤكــد أنَّ قلبه المجروح بسببك يا أبيض لونه أيضاً (أبيض) ، على الرغم من اختلاف البشرة بيننا ، وإن كنت ترى أنك تفتخر بماضيك ، فأنا لي المستقبل (الغد) ، وسأفتخر به مثلك تماماً ٠

هكذا نقل لنا الشاعر الحيدري ، صورة مؤلمة وواقعية وربما في وقته كانت مكررة تحدث يومياً بين البيض والسود ، وقد وظف عنصر اللون بشكل مركــزي ومــؤثر ، لمعالجــة تلــك القضــية الاجتماعية ٠

ثنائية الحركة والسكون :

تنتج الثنائيات المتضادة العلاقات الإنسانية المتفاعلة، التي تنتجها حركة العلاقات الداخلية في النصّ، كما يتحوّل الفعل بقوته البنائية إلى مولِّد للطاقة، التي تمد عناصر النصّ بــدفعاتٍ متواليــة، وتشحنها بالقوّة الحركية والتوالدية بدءاً من الإيقاع، وانتهاء بالتوليد الغنيّ للعلاقات الداخليــة فــي النصّ وهكذا يتخلَّى الفعل عن دوره بوصفه مؤشّراً على التحوّلات الطارئة إلى صانع لهذه التحوّلات، أي إلى طاقة توليدية لحركة التداعي والاستدعاء، والتحوّل والتفاعل، وما يرافق ذلك من انبثاقــات دلالية مفاجئة (٢٠)

يقول الشاعر صفاء الحيدري في ذلك : (٢١)

وسجا الليل غير طرقة بابٍ وأغان بعيدة خرساء
تغمز الصمت كلما أحلولك الليل وأغفت به رياح الشتاء
وتمشت فيه الأماني لتلهو بجفون المشاعر الرمضاء
غير صوتٍ ينزو فترتعش الريح وترتاع وحشة الأشياء
وبكاءٍ يعلو فيرتد ضحكاً وأنيناً يموت بعد بُكاء
. . . . . .
ومضت ساعةٌ ولم يطل الصمت فشقّ السكون همسُ رداءِ
وتمطى على الجدار شعاع يسكب النور في جفون المساء

تتضح ثنائية الحركة والسكون هنا بشكل واضح ، فالسكون المطبق ، والحركة الفعلية ، متمثل في المفردات ودورها في سياق الجمل ، ويمكن أن نوضح ذلك بالمخطط الآتي :

سجا الليل + أغاني خرساء + الصمت + غفوة رياح الشتاء = السكون ٠

فنلحظ أن هذه المفردات تحمل معنى السكون بأشكاله المختلفة من سجا الليل ، أي غطا الليل بسكونه ، وهنا تبدأ مناجاة الشاعر مع ذاته ، ويبدو أنه اعتمد على الانزياح في تشكيل هذه الثنائيات ، فقد جعل الأغاني خرساء ، والصمت يغمز ، والرياح تغفو ، والأماني تمشي وتلهو ، وللمشاعر جفون ، وهكذا٠ ففي هذا النص استعمل الشاعر أسلوب التكثيف الدلالي للمعنى ٠

أما ما يدل على الحركة فتمثل بالمفردات الآتية :

تمشت الأماني + صوت + ارتعاش الريح + ارتياع الوحشة + بكاء عال + ضحك مرتد + شعاع تمطى + نور مسكوب = الحركة ٠

فجاءت هذه المفردات مشحونة بطاقة دلالية تناقض حالة السكون فيما مضى ، إذ نلمح هنا التعارض بين المعنى المباشر للمنطوق والمعنى غير المباشر ، فالكلام لا يعبر عن ظاهره بل عن المعنى الخفي ٠

ومن ذلك أيضاً ، قول الشاعر الحيدري : (٢٢)

ومضى الليل يعقبه الليلُ ولما يزل أسيرَ هواها
يتلوى من الأسى وهي تلهو بالليالي كما تشاء مُناها
وهو جاثٍ بعتبة الباب يستجدي أماسيه نفحةً من شذاها

قتلته أسىً ، فأغفى على الذلِّ تناجيه في الظلام رؤاها

في هذا تبرز ثنائية الحركة والسكون في مجموعة من الكلمات المتعارضة ، التي باجتماعها تشكل رؤيا شعرية تبعث على الاختلاف والمغايرة وتميزه من باقي النصوص الأخرى ، ويمكن توضيح ذلك بالمخطط الآتي :

السكون	الحركة
.....	.....
العاشق	المعشوقة
↓	↓
ليل متعاقب مأساوي	ليل متعاقب في الملهاة
↓	↓
أسير الهوى	الهوى أسيرها
↓	↓
جاث	قتلته أسىً
↓	↓
غاف على الذل	رؤاها تناجي

إذن فالسكون تمثل كلياً في شخص العاشق ، الدالة على معاناة وآلام ، فكان السكون يشكل الجانب السلبي ، الدال على غياب السعادة ، وقد تلخص السكون هنا ــ كما في المخطط أعلاه ــ بـ (ليل مأساوي ، و أسير هوى ، و جاث بعتبة باب ، غاف على الذل) ٠

أما الحركة فتتمثل في شخص المعشوقة ، التي تشكل الجانب الإيجابي في النص ، الدال على حضور السعادة ، والذي كان سبباً في غيابه عند العاشق ، وقد تمثلت الحركة بالألفاظ الآتية : (ليلها ملهاة ، الهوى أسيرها ، قتلته أسى (العاشق) ، رؤاها تناجي) ٠ ويبدو أن غلبة الجانب الغنائي هذه

المرة على الجانب الواقعي الذي طالما وجدناه مكرراً في أغلب النصوص الشعرية للشاعر صفاء الحيدري ، وهذه الغنائية منبثقة من أسلوبية التكرار للألوان المختلفة الواردة هنا ، إنّ قيمة التضاد تكمن في نظام العلاقات، الذي يقيمه بين العنصرين المتقابلين وعلى هذا فلن يكون له أيّ تأثير ما لم يتداعَ في توال لغويّ، وبعبارة أخرى: فإنّ عمليات التضاد تخلق بنية، مثلها في ذلك مثل بقية التقابلات المثمرة في اللغة (٢٣)

وهكذا أدى كل من الجانبين دوره في إتمام المعنى ، سواء في المفردات التي دلت على الحركة أم المفردات التي دلت على السكون ، فضلاً عن الكثافة الدلالية التي أشبعت النص ، وتعد سمة من سمات النص المفتوح الثري ٠

الخاتمة :

لقد توصل البحث إلى عدة نتائج وهي كالآتي :

١ــ إن الثنائيات الضدية أحدى الأساليب البلاغية ، التي يلجأ إليها الشعراء ، للتعبير عن تجاربهم الصادقة وغير الصادقة ، إذ تتشابك في بنية متحركة أو ثابتة ، تجمع بين السلب والإيجاب ، وتختلف قوة دلالتها من شاعر إلى آخر ٠

٢ــ بعض الثنائيات أصبحت مشخصات رمزية للشاعر ، إذ نجده يكررها في أكثر من نص ، وفي أكثر من مناسبة ــ كما في ثنائية الزمان والمكان ــ حتى وإن أدى ذلك إلى فوضى اللغوية ونوعاً من التكرار الممل ٠

٣ــ قرر الشاعر بعض العلاقات الاجتماعية ، السلبية منها والإيجابية ، حسب نظرة المجتمع وأعرافه المتوارثة ، كما في ثنائية الفضيلة والرذيلة ، إذ رأينا فيها كيف أن تقاليد المجتمع هي التي غلبت في نهاية المطاف ٠

٤ــ أحياناً نلحظ أنَّ الفوضى تتسرب إلى النص ، بسبب تداخل وتشابك بعض الثنائيات في المقطع الشعري الواحد ، كما في ثنائية الحضور والغياب ٠

٥ــ بعض الثنائيات تعتمد على انتقائية الشاعر ، وعلاقتها بمزاجيته ، كما في ثنائية اللون ٠ فأحياناً طبيعة الموقف ن يحتم على الشاعر اختياره للألوان ، كما رأينا ذلك في اختياره للأبيض والأسود ، وربط هذه الثنائية بقضية العنصرية التي سادت كثيراً من المجتمعات ٠

٦ــ أحياناً بعض المفردات تكون مشحونة بالطاقة الحركية ، وبعضها يتسم بسمة السكون ، وهكذا تنشأ أسلوبية التقابل الدلالي بين الحركة والسكون ، وهذا ما تلمسناه في ثنائية الحركة والسكون ، من تفاعل وسلب وإيجاب ٠

الهوامش :

(١) ينظر : في الطريق إلى الحداثة ، دراسات في الشعر العراقي المعاصر ، سامي مهدي : ٣٧٣ــ ٣٧٤

(٢) ينظر : الثنائيات في النقد البنيوي دراسة نظرية تطبيقية ، إيمان عبد الحسن علي : ٣٧١

(٣) الثنائيات الضدية في الشعر العربي القديم ، سمر الديوب : ٥

(٤) ينظر : ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل ، عصام شرتح : ٤٦

(٥) عيون مضيئة ، قراءة في شعر كمال الحديثي ، احمد مطلوب : ١١٢

(٦) شعرية التضاد في ديوان رجل من غبار لعاشور فني ، محمد الأمين سعدي: ٤٥

(٧) ينظر : مقال بعنوان : المكان والزمان نوافذ و مراحل ، مريم بن بلقاسم ، مدونات الجزيرة ، https://blogs.aljazeera.net/blogs/2017/9/27

(٨) قصيدة (ربيع):٥٥

(٩) قصيدة (في الطريق) : ٢٧٥

(١٠) قصيدة (من بعد عام) :١٣٥ ــ ١٣٦

(١١) قصيدة (بابلون) : ص٣٩٧

(١٢) قصيدة (بابلون) : ٣٩٩

(١٣) ينظر : في الطريق إلى الحداثة : ٣٨١

(١٤) قصيدة (بابلون) : ٤١٤ــ ٤١٥

(١٥) ينظر : في الطريق إلى الحداثة : ٣٨١

(١٦) ينظر : الحب وإشكالية الغياب في الشعر الحديث ، بشرى البستاني : ٢٨

(١٧) قصيدة (عالم فارغ) : ١٨٣ ــ ١٨٤

(١٨) ينظر : دلالة الألوان عند شعراء البصرة ، صدام فهد الأسدي : ٨٣

(١٩) قصيدة (أنا أسود) : ٢١٤ــ ٢١٥

(٢٠) ينظر : ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل : ٤٨

(٢١) قصيدة (بيت اللعنة) : ٤٤٢ ــ ٤٤٣

(٢٢) قصيدة (عاشق) : ٤٧٣

(٢٣) ينظر : علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل :٢٥٦

المصادر والمراجع :

الكتب :

ــ الثنائيات الضدية في الشعر العربي القديم ، سمر الديوب ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، ٢٠٠٩م .

ــ الحب وإشكالية الغياب في الشعر الحديث ، بشرى البستاني ، دار التنوير ، الجزائر ، ط١، ٢٠١٣م .

ــ ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل ، عصام شرتح ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٥م .

ــ علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل كتاب النادي الأدبي، جدّة، ط١ ، ١٩٨٨ .

ـ عيون مضيئة ، قراءة في شعر كمال الحديثي ، احمد مطلوب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ط١ ، ١٩٩٢م
ـ في الطريق إلى الحداثة ، دراسات في الشعر العراقي المعاصر ، سامي مهدي ، دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع ، بغداد ـ شارع المتنبي ، ط١ ، ٢٠١٣م.
ـ المجموعة الكاملة ، صفاء الحيدري ، مؤسسة إيف للطباعة والتصوير ، لبنان .

الدوريات :

ـ المجلات :

ـ الثنائيات في النقد البنيوي دراسة نظرية تطبيقية ، إيمان عبد الحسن علي ، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية الإنسانية / جامعة بابل ، عدد ٢٣، في تشرين الأول ٢٠١٥.
ـ دلالة الألوان عند شعراء البصرة ، صدام فهد الأسدي ، مجلة الطليعة الأدبية ، العدد(٣)، ٢٠٠١م .
ـ شعرية التضاد في ديوان رجل من غبار لعاشور فني ، محمد الأمين سعدي ، مجلة الخطاب ،منشورات مخبر تحليل الخطاب ، جامعة مولود معمري ، الجزائر ، العدد ١٧ ، ٢٠١٤م .

ـ المقالات :

ـ مقال بعنوان : المكان والزمان نوافذ و مراحل ، مريم بن بلقاسم ، مدونات الجزيرة ، https://blogs.aljazeera.net/blogs/2017/9/27

The binaries contrasting in poetry

Safaa Al_ Haidry

Abstract

The binary is based as a phenomena that appear to be separate , contradiction link like symmetry and contradiction , contradiction has technical ability to create a toual atmosphere , based on negative and positive in the use of contrasting words in meaning , contradiction is part of the texture of the poem and it's composition the binaries are represent in poetry Safaa Al_ Haidary in the following phenomena : place and time virtue and vice , attendance and absence , the contrast coiors and movement and silence and so on .